

لقاء قناة بلادي بالدكتور إبراهيم الجعفري

2009/4/9

(محمد باقر الصدر المعلم الشهيد) (ج1)

المقدم: نبدأ من لحظة لقائكم بالسيد محمد باقر الصدر، هل كان اللقاء مباشراً فعلاً أم كان عبر كتابات؟

الجعفري: السيد الشهيد الصدر من الشخصيات التي يسبق صيته لقاءه، وقد ذاع صيته في الآفاق، وامتد إلى المتلقي عبر أدوات معرفية مختلفة خصوصاً أنه متعدد المواهب، فأعتقد أنه ليس من الشخصيات التي تلتقي بها على نحو الصدفة، إنما يسبقك خطابه، ويسبقك فكره ومؤلفاته، وفي الوقت نفسه حنانه ومحبته، فاللقاءات الأولى بالسيد الشهيد كانت في زمن الصبا؛ وكنا نعرف من علمه، ومن ذاكرته الكثير مما يختزن من المعلومات المتنوعة فكان ذلك في أول الستينيات، وبدأت تتوالى اللقاءات، وتأخذ نمطيات وموضوعات مختلفة لكن أول اللقاءات من الناحية التاريخية كان في أوائل الستينيات.

المقدم: هل لكربلاء المدينة أثر في هذا اللقاء أم القضية قضية وضع ثقافي عام، قد يشمل البصرة مثلما يشمل كربلاء؟

الجعفري: من دون شك، المدن المقدسة عادة ما تفرز شرائح سياسية نوعية ومتنوعة، وأقصد بالنوعية أنها ذات طابع ثقافي، يتداول الناس الثقافة في المدارس والدورات والمراقد والمساجد حتى في المقاهي، هذه تنطبق على النجف الأشرف وكربلاء المقدسة والكاظمية باعتبار اقتران الموجود بين المدينة المقدسة والحوزة العلمية وهي تحمل لواء العلم، إضافة إلى ذلك أنها ليست نوعية فقط إنما متنوعة أو أكثر من نوع مثلما هناك حالة إسلامية تتطلع، وتستلهم ذلك من الإمام الحسين، ومن الإمام علي (عليه السلام)، إلا أن لها مضادات؛ لأنها عملت في الاتجاهات السياسية المختلفة، وعملت في المناطق المقدسة، وأفرزت شخصيات متعددة.

المقدم: إذن كان اللقاء وليد دراسة دينية من جانب، وكان وليد التأثير الثقافي بأطروحات السيد الصدر في مرحلة الستينيات؟

الجعفري: قد تتعدد الدوافع، ولا تتنافى أيضاً، فهناك إعجاب به شخصياً بأخلاقه بثقافته بطريقة تعامله مع الشباب، وهو كان شاباً، وهو من مواليد عام 1935، ويدرك جيداً قيمة الشباب ودورهم في تحمل مثل هذا الفكر، من جانب آخر ولوضوح الفكرة عنده كان يتكلم بلغة مبسطة لكن فكره عميق، فيتكلم بلغة السهل الممتنع، وقد ملأ فراغاً كبيراً.

المقدم: هل نستطيع أن نتحدث عن المثقف الإسلامي في المرحلة الستينية خارج إطار السيد الصدر؟

الجعفري: نستطيع أن نقول: لا يوجد مثقف، لكن هل شكل المثقفون ظاهرة طفحت على السطح، نعم.. شكلوا ظاهرة طفحت على السطح؛ لمن ينكفى، ويتعب بجهوده الشخصية، ويبدأ ينقب في بطون الكتب، ويتردد على أصحاب الفكر والاهتمام سيصل إلى هذه الحقيقة..

السيد الصدر (رحمة الله عليه) استطاع أن يدور هذا الفكر، ويخرجه من حيز العلم المختص إلى الحيز الثقافي العام، واستطاع أن يخاطب الشباب، ويخاطب المثقفين، ويرتقي بهم بأسلوبه الجذاب، ومن أبرز عوامل الجذب أن السيد الصدر كان يقدم بحوثه على شكل مقارنة، فحين يتكلم عن الاقتصاد الإسلامي لا يبتعد عن مدعيات المدرستين الماركسية سواء كانت الشيوعية أو الاشتراكية أو المدرسة الرأسمالية.

المقدم: لماذا تأخرت ظاهرة الإسلام السياسي التنظيمي في الإطار الحزبي للحركات الإسلامية؟

الجعفري: لم تتأخر بل هي موجودة على شكل حركات تشكلت قبل حزب الدعوة كالعقائديين والشباب المسلم، نعم.. لم تنتشر، ولم تأخذ الحجم الذي أخذته الدعوة من حيث الشهرة والتصدي ولكن من حيث السبق الزمني هي قبل الدعوة، وهناك كانت بعض الأفكار تتبلور بشكل تدريجي، وأخذت سياقات مختلفة، لكن تمظهرت في نهاية العقد السادس من القرن العشرين بحزب الدعوة الإسلامية الذي أسسه السيد الشهيد (رحمة الله عليه).

المقدم: ألم يكن للمرجعية الدينية دور في تشكيل حزب الدعوة، وتهيئة الأجواء المناسبة له داخل الحوزة؟

الجعفري: نظرية الدعوة الإسلامية كما وضعها السيد الصدر (رحمة الله عليه) كانت قد أخذت بنظر الاعتبار دور المرجعية كمرجعية، في الوقت نفسه لم تعمل الدعوة بشكل متقاطع أو بعيد عن توجهات المرجعية، ففي ذلك الوقت كانت مكنتات آية الله السيد الحكيم (رحمة الله عليه) منتشرة في الكثير من المحافظات ومدن العراق المختلفة، وكان يجري التنسيق، ويتم الاستفادة منه، عام 1967 و 1968 كانت مواكب الجامعة في ذكرى الطفوف بادرة رائعة من الدعوة، وكان عبد الصاحب دخيل (رحمة الله عليه) على التنفيذ المركزي، فيما كان الشباب في أكثر المناطق يتولون عملية التنسيق والتنفيذ، وأنا كنت شخصياً أتولى ذلك في الموصل، هذه أفكار ومتبنيات من قبل الدعوة، وكان ينهض بها شخصيات دعوية مشهورة تقوم بالتنفيذ مركزياً أو ميدانياً في جامعات العراق كلها، هذه بواكير حركية، وصفحات رائعة في تأريخ العمل الحركي في العراق.

المقدم: متى انتميتم إلى حزب الدعوة تنظيمياً؟

الجعفري: الانتماء التنظيمي كان عام 1964، وتم التعامل معي من قبل الإخوة الذين فاتحوني بالدعوة على هذا الأساس، لكنني كنت متردداً في البداية لسبب له علاقة بتقليدي، إذ كنت أقد السيد الحكيم (رحمة الله تعالى عليه)، فتأخرت في الاستجابة، حتى أوفق بين تقليدي للسيد الحكيم (رحمة الله عليه) وبين عملي معهم.

المقدم: هل كانت هناك لقاءات خاصة أم كانت لقاءات ضمن العامة؟

الجعفري: حصلت عدة لقاءات خاصة خصوصاً بعد عام 1966، وحصلت لقاءات عام 1970، ونهاية الستينيات التقينا عدة مرات، وأتذكر الشهداء الذين كانوا معنا، وطبيعة الأسئلة التي أثارت عند السيد الصدر وأجوبته.

المقدم: ما قضية الحج السنوي، وما علاقتها بالسيد الشهيد؟

الجعفري: كنت كلما أقدم على الحج أمنع، ولا يعطونني فرصة، وفي عام 1978 رشحت رئاسة الصحة في كربلاء اسمي، وأبلغوني بأن اسمي ظهر، وسأذهب إلى الحج مع حملة الحج، وتحفظت، وقلت: أن تكون هذه حجة إسلام، وتوقعني في إشكال فلا، فكلفت أحد الإخوان، وقلت له: اسأل السيد "من دون أن تذكر اسمي" بأن اسمي ظهر لكنني لا أرغب في الذهاب، فهل تعتبر هذه معصية لأنها حجة إسلام، فاتصل بي، وقال، مع تحيات ودعاء السيد يقول: إنها حجة مباركة، تصورت أنه قصد السيد الصدر (رحمة الله عليه)، وأثناء الحديث والحوار اتضح أنه سأل السيد الخوئي (رحمة الله عليه)، فقلت: له أنا لا أقد السيد الخوئي (رحمة الله عليه) أنا أقد السيد الصدر، فقال: إذن أنت أسأله، وذهبت إلى النجف، ودار حديث بيني وبين السيد الصدر، والسيد الصدر أكد عليّ، وقال: هذه الحجة واجبة عليك، وذهابك معهم سيؤثر فيهم، وستكون طيببهم الروحي، كما أنت طيببهم المدني، وستذكرني هناك إن شاء الله.

المقدم: ما حقيقة موقف السيد الصدر من البعثيين وصعودهم إلى السلطة في عام 1968؟

الجعفري: السيد الصدر (رحمة الله عليه) صاحب نظرية إسلامية ومشروع ضخم يبدها بالفلسفة، ثم يشيد عليه بناءً فوقياً بالاقتصاد، وكان يجمع أن يكمل ثالوثه بكتاب (مجتمعنا) الذي ترك آثاره في (الإسلام يقود الحياة)، فهذا بكل تأكيد يتعارض جملة وتفصيلاً مع مشروع البعث قبل أن يكون هناك خلاف سياسي على السلطة، ويستهدف السيد الصدر بل المرجعية كلها من قبل البعث الجائر عندما جاؤوا في 1968 اتهموا السيد الحكيم (رحمة الله عليه) بالتجسس، وأرادوا أن يوجهوا طعنة نجلاء إلى خاصرة المرجعية، وإلى شخص السيد الحكيم (رحمة الله عليه)، فالسيد الصدر له موقف، وله منطلقاته الفكرية والمعرفية والمنهجية، وكذلك السياسية.

المقدم: هل القضية تتعلق بالمنطق الفكري فحسب، عام 1963 كان لها أثر في النظرة إلى البعثيين القادمين؟

الجعفري: من دون شك تجربة عام 1963 على الرغم من قصرها كانت قد كشفت النقاب عن توجه هذا الحزب، وكيف يحكم، وما هي نظريته، وما هي أساليبه في التعامل، وكيف اعتدى على الكثير من الناس، وبطش، وقتل، وفعل ما فعل، فحين جيء به مرة ثانية في 1968 توجس الناس خيفة حتى أن الحزب نفسه لم يكن يجرؤ أن يكشف عن هويته، أتذكر في عام 1968 أنا والشهيد نوري طعمة (رحمة الله عليه) كنا نتجول بين بساتين كربلاء، كان يوجد برنامج في صوت لندن (السياسة بين السائل والمجيب)، ويوجد (لكل سؤال جواب) يتناوبان كل عشر دقائق قبل نشرة الأخبار تحديداً الثامنة إلا عشر صباحاً، سئل أحدهم سؤال مفاده: ما هي طبيعة نظام الحكم في العراق؟ فأجاب بالشكل التالي أوائل 1969 قال: أنا أحيل السؤال إلى ديفيد ميتشل الخبير البريطاني في شؤون الشرق الأوسط عندئذ كان زعيم حزب المحافظين لكن لم يبرزوه كسياسي إنما أبرزوه كصحفي، فقال على الرغم من مرور بضعة أشهر على الانقلاب في العراق إلا أن المحللين السياسيين لم يستطيعوا أن يحددوا هوية الحزب الحاكم في العراق.

المقدم: إذن نحن أمام حزب بلا هوية؟

الجعفري: لا، أمام دول مخططة للإتيان بحزب، ولا تريد أن تكشف علاقتها بذلك الحزب، فمن غير المعقول أن يأتي هذا الحزب، ويكشف فيما بعد عن الترابط الموجود فيما بينهم، ويخفوه؛ لأن اسمه مرفوض وهو بلا أرضية.

المقدم: كان للسيد الصدر موقف واضح من القضية الكردية، ربما موقف معلن في الـ 1969 و 1970، لكن هذا الموقف لم يأخذ حيزاً كبيراً.

الجعفري: ليس هذا كل شيء، فقد كان يصدر من المرجعية عموماً ومرجعية السيد الصدر (رحمه الله) بصورة خاصة فقد حرّم على الجنود العراقيين الانخراط في السلك العسكري إذا كان يؤدي إلى الذهاب إلى مناطق كردستان، واعتبر سفرهم سفر معصية،

كما ذهب السيد الصدر (رحمه الله) إلى أبعد من هذا حين رأى أنه بدأت تنتشر في العراق نكات تهزأ وتسخر من الشخصية الكردية وهذا به مساس؛ فحرّم تداول السخرية والنكات والهزء من الكرد.

المقدم: كيف كان الارتباط بين حزب الدعوة والسيد الصدر بعد مرحلة الستينيات، هل كان عبر وسيط أم كان ارتباطاً مباشراً كعلاقة تنظيمية؟

الجعفري: في مرحلة التأسيس كان السيد الصدر (رحمه الله) موجوداً في القيادة، ويدير جلساته الأولى، بعد ذلك اقتضت المصلحة، وأراد أن يدرأ الخطر عن الحوزة، وعن طلبية العلوم الدينية، فاضطر في تلك الفترة المعروفة على أساس أن يتخطى بها الأزمة التي حصلت، فكان يرفع بشكل غير مباشر؛ كونه بدأ يتحرك على مسار مرجعي، وطبيعية المرجع أنه لا يتحدد بحزب إنما يوجه مجموعة المحركات والمولدات والمؤثرات في المجتمع بما فيها حزب الدعوة وغيره من دون أن يكون جزءاً منه، وهذا شيء طبيعي، نعم.. قد تكون له ملاحظات معينة على بعض الشخصيات وهذا وارد لكن ينظر إلى الحزب على أنه حركة إسلامية، هو مؤسسها وهو الذي خط لها فكرها، وكتب نظريتها.

المقدم: كل أنظمة الحكم الدكتاتورية، تتهيب من إعدام المعارض الكبير حتى لا تحوله إلى رمز، لماذا أعدم النظام البعثي السيد الصدر، ألم يكن هناك حل وسط؟

الجعفري: من يدرك طبيعة الأجواء التي حفت بالسيد الصدر، وعلى المستوى المحلي بل على مستوى المنطقة ينقلب الاستغراب إلى أنه لماذا لا يُعدم السيد الصدر، السيد الصدر ليس شخصية عادية.. السيد الصدر يحمل مشروعاً يتدرج فيه إلى إصلاح المجتمع وبناء دولة، وليس مشروع حكومة ولا إنسان اعتزل نفسه عن السياسة. السيد الصدر (رحمة الله عليه) كان يشكل خطراً داهماً بالنسبة للحكومة النظام البعثي؛ فتحرك النظام بشكل هستيري، وبلا رحمة لتطويق هذه الحالة، وعرض على السيد الصدر ثلاثة مطالب دفعة واحدة، عرض له إما حكم الإعدام وإما أن يصدر فتوى بجواز الانتماء إلى حزب البعث وعدم جواز الانتماء لحزب الدعوة وإدانة إيران، فرفضها السيد جميعاً، ثم قيل له اختر واحدة منها، إما حرمة الانتماء لحزب الدعوة أو جواز الانتماء لحزب البعث أو إدانة إيران، فرفض، وقال: أنا قررت الشهادة، ولم يضعف، ولم يهن أمام هذه التحديات، وأثبت أنه قمة في العلم والفكر وقمة أعلى من كل القمم في الصمود والشموخ.

المقدم: هل كانت دراستك في مدارس الدولة أم في المدارس الدينية؟

الجعفري: كما أقراني من الطلاب بدأنا بالدراسة التقليدية المعروفة في وزارة المعارف حينذاك، من دراسة ابتدائية ومتوسطة، لكن وأنا في الإعدادية فتح السيد محسن الحكيم (رحمة الله عليه) دورة لثلاثة أشهر مكثفة تحديداً عام 1965 بستة دروس في الاقتصاد

الإسلامي، وتولى الدراسة الشيخ علي الكوراني من تلامذة السيد الصدر، ودرسنا التفسير وعلوم القرآن على يد السيد محمد باقر الحكيم (رحمة الله عليه)، وفي علم الكلام الشيخ أحمد أمين صاحب كتاب (التكامل في الإسلام)، وبالفقه درسنا الشيخ عبد الحسن البيضاني وبالبلاغة العربية درسنا سيد طالب الرفاعي، هذه الدروس الستة جاءت في وقت كنت في أمس الحاجة لتعميق الثقافة المتنوعة لهذا المستوى العالي، فشكلت بنية تحتية قوية تتميز بالتنوع والعمق على يد فطاحل الأساتذة، وكانت دورة مكثفة جداً وامتحانات، ومنحنا شهادة بهذه الدروس، وكان فكر السيد الصدر واضحاً سواء كان من خلال قراءة (اقتصادنا) أو من خلال علوم القرآن الكريم التي كان يدرسنا فيها السيد الحكيم (رحمة الله عليه).